الأنوار ٨ آذار ٢٠١٨

«مش كل شي فرنجي برنجي»

د. جهاد نعمان

(استاذ في المعهد العالي للدكتوراه)

انساننا مولودٌ اساساً في بلاد صافية سماؤها، حادة شمسها، خصبة تربتها. بالغ الحضارة منذ اجيال عريقة في القدم، قبل ان تتولى على ارضه عدّة ممالك متمدنة، حظيٌّ بدلال الطبيعة، ومتمتعٌ باجمل غرائزها من ذكاء حادّ، ودماثة اخلاق رضيّة، ومرونة في التطبّع، وسعة في الافكار، مما يجعله، مع حفظ عوائده، يتخلّق باخلاق من شاء من البشر ويباري غيره في طباعه، ويحسن التكلم باللغات الاجنبية ويتمكن من معرفة اسرارها حتى تسمعه يلثغ باللغة الفرنسية، فلا يختلف عن اهل باريس، ويدير لسانه بمهارة في فم مُغلق، حتى لا يفرق عن احرار الانكليز، الى غير ذلك من اتقان سائر اللغات التي لا يتميّز فيها من اصحابه، بينما لا يكاد غيره يقدر ان يتمثّل به.

قضى القدر ان يتغلّب العنصر الاوروبي على شرقنا في احسن احوالنا. وحتمت علينا الاحوال وخيانة الدهر ان نرانا متقهقرين من عدة وجوه. فاستيقظنا من رقادنا ورأينا الاجانب سبقونا وتفوّقوا علينا بالعلوم والصنائع ولاسيما في العلوم التقنية. فبُهرنا من تقدّمهم واخذنا ننظر اليهم نظرة الاعجاب في كل أطوارهم التي تتفاعل ومحيطهم الخاص، وعدنا لا نعرف ان نميّز بين السم والدسم وبين ما هو تمدين اوتقهقر. فاخذنا نتجدّاهم تحدّياً اعمى غير جاعلين قبلة عزائمنا التشبه بجلّة القوم وبالطبقة الراقية، بل متمثّلين بعيوبهم اكثر منا بصفاتهم الحسنة، وقد فاتنا ان التمدين لا يقوم باختراع الآلات وتسهيل طرق المعاش وحسب بل ينبغي ان يكون مرتبطاً بالمبادئ القويمة والاخلاق الحسنة والسعي لتخفيف ويلات الانسانية. فهذا التقليد الاعمى انتشر فينا الى حدّ ان سرَت منه امراض كثيرة في حياتنا الفردية والعيلية والاجتماعية.